طهارة

لبس "أسي عزيز"، اليوم، جلبابه الواسع الفضفاض الذي تحركه الرياح الشمالية القوية. يصلي الناس في الدوار خارج المسجد بعدما نظفوا الساحة، خلفه، وأحاطوها بحاجز من القصب. يفضلون الخارج؛ لأنه بارد شيئا ما، ولأن الروائح التي تنبعث من المصلين لا يتحملها إلا الهواء الطلق. غازات تخرج دون إذن منهم. إذ تجد أحدهم واقفا في الصف، ويداه مقبوضتان على بطنه، ممسكا معدته التي لا تتحمل كميات الحريرة التي استقبلها جوفه.

ينام المصلي واقفا، ولا يستفيق سوى عند سماع عبارة "الله أكبر" التي يرددها الجميع أثناء الركوع. يركع، ثم تخرج ريح صرصرعاتية من خلفه فتُسلط على المصلين. يرتبك الصف، وتنتشر الرائحة الكريهة في الساحة. لاشيء يصدها. تخترق الصفوف والرقاب لتستقر في الأنوف. يشمها الفقيه، وينبه صاحبها في الركعة الموالية بقراءة آيات الطهارة. يخرج الفاعل متسللا حتى لا يعرف فيفتضح ويصير من أحاديث الصباح والمساء على جَنَبَات الطريق. الرجال في القرية لا شغل لهم. لا يتقنون سوى النميمة وأحاديث المجون. حتى وهم صائمون يفطرون بلحم إخوانهم!

خرجت كعادتي بعد الإفطار مع فاطمة إلى المسجد لأداء صلاة التراويح. كنا متأخرين شيئا ما عن الجماعة؛ لأننا أخذنا جولة مع بعضنا البعض

إيمانا منا بالآية الكريمة "فالآن باشروهن و ابتغوا ما كتب الله لكم". أخذنا حماما ساخنا معا بسرعة، و اتجهنا تلقاء المسجد. في الطريق، تبتسم فاطمة وتذكرني بتفاصيل المشهد الرومانسي. لم أشأ أن أقطع عنها فرحتها، وإلا فكنت لأنبهها أننا ذاهبون للقاء الله. لكن سرعان ما صمتت و ابتسمت في وجهها، وقلت في نفسي: "لقد صامت أزيد من نصف اليوم، فلماذا أحرمها من هذه اللحظات؟".

نصل إلى المسجد وفاطمة لا ترغب بترك يدي لتتجه إلى ناحية النساء. سحبت يدي لكنها تمسكت بها بشدة. كان الظلام يعم المكان، ويشي بسلطة غريبة. أسندتها إلى جدار المسجد، وتبادلنا الحب. قبّلنا بعضنا البعض، وعددنا تفاصيل جسدينا الطريين دون مراعاة للمقام.

كان صوت الفقيه جهوريا. وزادت مكبرات الصوت من حدته. كان يتقن القراءة بمقامات إنشادية جميلة. تتناغم القراءة مع التقبيل. لم نجرب ذلك، ساعة، والقرآن شاهد علينا. النشوة غريبة، والمقام غريب، وحتى جسد فاطمة كان غريبا. تثور فاطمة، وتمسك بجسدي بقوة حتى كادت تخنق أنفاسي. يمر بمحاذاتنا رجل خرج من بين الصفوف معلنا عن انسحابه كمحارب مهزوم، ينظر ناحيتنا ونحن متشابكان في تماهٍ و انسجام روحانيين تامين. لم يستطع أن يتعرف علينا، ننتبه إليه دون أن ينفصل الجسدان. أما أرواحنا، فلسنا ندري أين اعتلت.

إن رمضان شهر يغير الطباع؛ يغير المرء من ضبع إلى سبع، ومن فاجر إلى فائز. حتى بائعات الهوى يتبن. وحدهم الحمير يبقون حميرا. كيف لي أن

أنسى أنني أحببت فاطمة في رمضان، ونكحتها في ليلة القدر التي تتنزل فيها الملائكة، فقط. لتكون شاهدة على النكاح! أحببت أن أدخل بها في تلك الليلة المباركة. فأنا أومن بأن الله سيبارك لنا في بعضنا البعض في رمضان وفي غيره. لكن رمضان له سلطته وقدسيته.

سمعنا الفقيه قد أنهى التراويح بصلاة الوتر، خرج الناس و انتشروا؛ كل إلى كوخه. عدنا بدورِنا مع الجماعة دون أن نفترق. لا أنا أسير مع الرجال، ولا فاطمة تسير مع النساء. كنا مختلفين عن كل الأزواج في الدوار. كانت أكفنا متعانقة والأصابع تتحرك بين الفينة والأخرى، وكلما نظرتُ إليها أجدها باسمة، فأقول: "إن الحظ ابتسم لي؛ لأنها تحبني". أما النساء اللائي صلين خلف الإمام، فمتجهمات؛ أخافهن بآيات قرآنية من الوعيد بدخول جهنم والبقاء خالدات فيها.

نقف أمام البيت، أدخل المفتاح في القفل وأعالجه، ثم أدعو فاطمة للدخول، ثم أتبعها كي أغلق الباب بخفة يدي دون أن أدير وجهي. أطمع في النظر إلى ردفها حتى وهي معي.

كنت دائما أردد عبارة "النساء أولا"، فقط لأرى مؤخرتها تهتز. تعجب بنفسها هي، أيضا، حين أقول لها ذلك، وحين أمدحها و أتغزل بأردافها.

بيتنا القروي متواضع؛ مرحاض يؤدي وظيفة الحمام في الوقت نفسه، مطبخ صغير، غرفتان تغزو جدرانهما الكتب؛ واحدة للنوم، وأخرى للضيوف. في الحقيقة نادرا ما يأتينا ضيوف، لأننا نقضي معظم الوقت خارج

البيت، وحينما يأتي ضيف فإنه يعود إلى أدراجه بعد أن يُعييه طرق الباب. يترك أمارة؛ كي ينبئنا بزيارته. إنها سيمياء التعامل مع الأبواب في الدوار.

فضلت العيش في القرية، لأنني لا أستسيغ المدينة وبروتوكولاتها، وضوضاءها وسرعتها، ودواخنها، ونفاقها. كل شيء فيها يشي بالتكبر والأنفة. يتعامل الناس، فقط، بالجسد. والجسد لا قيمة له في غياب العقل والروح. اللباس في أبهى حلله، و"قصات" الشعر الغريبة بالنسبة لعالم القرية بين الذكور والإناث، العلاقات الحميمة على مرأى ومسمع.

تقبل الفتيات الفتيان، في الحدائق، ويضاجع عابرو السبيل بائعات الهوى. لا تشعر بالأمان في الحافلة، تنزل في محطتك، و قد فتشت جيوبك تفتيشا. يتحرش بالنساء سرا وعَلنًا. في الحقيقة، أعرف كثيرات يحببن ذلك. فمنهن من ترتدي ملابس شفافة وكاشفة، فقط، لكي يتحرش بها لص، وينزل معها في محطته، ثم يرميها بورقة مالية. تحس أن العالم كله كائن بين رجليها. النساء في المدن ماكرات؛ يعتبرن الأرض تدور لأجلهن، والشمس تشرق من شفاههن، والقمر مقدرا في أجسادهن. المدينة في كل تفاصيلها تساوي الجسد.